بين آدم وحواء

قبل أن تثور القواصف
فوق أثباج الكوثر
للدكتور زكي مبارك

ارتاح آدم إلى كيد حواء بعض الارتياح ، وأدرك أن الرجل لا يعيبه أن يُفتن بالمرأة من حين إلى حين ، على شرط أن يظل في الحدود التي لا تجرح كرامة الرجال

وفطن إبليس ، لعنه الله ، إلى أن آدم أخذ يؤوّل كيد المرأة ويقسمه إلى أقسام فيها المكروه والمباح ... فطن إبليس إلى هذه الثغرة فجدّد من نشاطه واستأنف الوسواس فهتف : « هل أدلكما على شجرة الخلد ؟ ... هل أدلكما على شجرة الخلد ؟ ... ألا تسمعان ؟ »

قالت حواء : سمعنا وسنطيع . وقال آدم : سمعنا ولن نطيع

فغضبت حواء من جواب آدم واتهمته بالزهد في الخلود ، وهو زهدٌ ذميم ، فما يليق بالرجل أن يضيع فرصة تنجيه من الفناء ، ولو ارتكب في سبيلها ما لا يليق

وغضب آدم من سفاهة حواء فقال : من أين عرف إبليس أن شجرة الخلد هي شجرة التين ؟ وعلى فرض أن كلامه صدق في صدق ، فكيف يجوز أن نعصي الله لنظفر بالخلود ؟

إعلمي ، يا حواء ، أن الرزق والجاه قسمان : حرام وحلال ، وأنا لا أقبل أن نُرزَق الخلد عن طريق الحرام ... إن اللقمة المسروقة تقف في الحلق لحظة ، ثم تُزدرَد برفق أو بعنف . ومع هذا تبقى لها عقابيل تحزّ في القلب إلى آماد طوال ، فكيف نستجيز الظفر بنعمة الخلود عن طريق العصيان ؟ وكيف نرضى أن نعيش أبد الآبدين في أسر الحرام الممقوت ؟

— آدم ، أنت أحمق !

— لأني أزهد في الخلد المكسوب بالعصيان ؟

— لا ، بل لأنك تجهل أن الخلد أنفس وأثمن وأعز من أن تُنتقَى في سبيله الشُّبهات

— النص صريح في تحريم هذه الشجرة يا حواء

— التأويل يلحق جميع النصوص

— إذا وُجدت الغاية التي تبيح الممنوع من التأويل !

— وأيُّ غاية أشرف من الخلود ؟

— إسمعي ، يا حواء ، إن الخلد غاية شريفة — كما تقولين — ولكني أبغضه أشنع البغض ، لأنه يوجب أن أعيش في صحبة عقلك الأجوف إلى ما لا نهاية له من الآباد ... إني ضجِرت ، ضجرت ، مع أن صحبتنا في الجنة قريبة العهد ، فكيف أصنع إذا كتب الله عليّ أن أكون من الخالدين في جوارك يا حواء ؟

— تغضب مني يا آدم وأنا أدعوك إلى الخلد ؟

— هو خُلدٌ حرام لا حلال ... وما يليق بنا أن نعامل الله في كرمه بغير الامتثال

— أتصِفُ الله بالكرم وهو يبخل علينا بشجرة لا يساوي حطبها درهمين ؟

— ألم أقل : إن الله يختبر قُوانا النفسية بتحريم تلك الشجرة ؟ وإذا عجزنا عن كبح النفس في البعد عن شجرة لا يساوي حطبها درهمين ، فكيف يكون المصير لو نُهينا عن شجرة مصوغة من عيون العذارى وخدود الملاح ؟ المعصية بغيضة يا حواء ، لأنها تضيفنا إلى أهل الكفران ، وما يجوز لمن يعيش في مثل هذا النعيم أن يفكر لحظة واحدة في عصيان المنعم الوهاب

— الله منعمٌ وهاب ، وهو يبخل بشجرة لا يساوي حطبها درهمين[1] ؟

— الآن عرفتُ أنك امرأةٌ سليمة الأعصاب والحواسّ إلى أبعد الحدود

— وكيف ؟

— لأنك تنكرين الجميل ، والمرأة لا تنكر الجميل إلا حين تكون في عنفوان الصحة والعافية

— وإذن ؟

(١) هل كان في جنة آدم وحواء دراهم ودنانير ؟ إن هذا يؤيد الطعن في صحة كتاب « شيث »

— وإذن أعصى الله من أجلك يا حواء !

— فتأكل من شجرة التين ؟

— وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود

— تحبني ، يا آدم ؟

— أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلتْ فؤادي . أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان . أحب القادة اللعوب بالعقل والروح . أحبك يا حواء حبًّا أمتنَ من الصدق وأروح من اليقين . أحبك يا حواء حبًّا سيُفسِدُ ما بيني وبين ربي ، إلا أن تشاء إرادته السامية أن أتقرب إليه بعبادة الجمال ... ولعله يشاء !

— وإذا لم يشأ ، فماذا تصنع ؟

— آكل من شجرة الخلد ، لأحمي هذا الجبين من الأفول

— بالعصيان ؟

— هنا المشكلة يا حواء ، فما يُسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال

— أراك اهتديت !

— وأراني ضللت !

— أفِقْ ، يا نَشْوان

— إن جاز للموقوذ بكفّ الجمال أن يُفيق !

— تحبني يا آدم ؟ تحبني ؟

— أحب النار التي صهرت روحي ، ولن أطمئن إلا يوم أنهشك يا حواء لتعودي نقطة من دمي

— ما هذه الوحشية ؟

— أيّ وحشية ؟ ألم تُوخَذي من ضلعي ؟

— أنا من ضلعك أخذتُ يا كذّاب ؟

— إسألي الملائكة ، فعندهم الخبر اليقين

— ولهذا جئت جميلة ؟

— وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !

— أراك تبغضني يا آدم !

— هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح ، وأبغض الجبين الوضاح ، وأمقت القد الرشيق ، وأستعيذ بالله من السحر المتموج فوق الثنايا البيض

— ثم ماذا ؟

— ثم أكره الصوت الذي يُشبه وسواس الحُلِيّ فوق النحور ، والذي يفوق غمغمة الكأس عند فورة الرحيق

— ثم ؟

— ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب

— ثم ؟

— ثم أبغض حواء لأنها حواء !

وبعد الأنس بقُبلتين محرقتين مضى آدم لشهود حفلة الطيران ، وهي حفلة موسمية كانت تقيمها الحمائم والبلابل والعنادل في « غابة الصنوبر » لتروض أفراخها على النهوض والتحليق . ويحدثنا شيث أن حفلات الطيران هذه كانت تجتذب جميع سكان الجنة بلا استثناء . وقد نص على أن السباع كانت تراها عجباً من العجب ، لأنها تشهد بتنوع المواهب ، وإلا فكيف جاز أن يقدر الطائر الضعيف على ما يعجز عنه الأسد الصوّال ؟

مضى آدم وحده لشهود حفلة الطيران ، وهو مبتسم جذلان ، فقد أعفى نفسه من الحيرة في قرب شجرة التين ، وأسلم مصيره إلى خالق الأنوار والظلمات ، فللأقدار أن تصنع به ما تشاء

أما حواء فشمرت بحزن وانقباض حين رأت آدم لا يمانع في قرب الشجرة المحرّمة ، ولهذا قلّت بشاشتها لشهود حفلة الطيران ، وكذلك آثرت الاعتكاف لتنظر فيما هي مقبلةٌ عليه ... فما الذي تأذّت به حواء وقد بلغت من ختل آدم فوق ما كانت تريد ؟

نظرت حواء فرأت أن الشقاق حول الشجرة المحرمة كان فرصة لشغل آدم بزوجته شغلاً غير مقطوع ، والمرأة يرضيها ويسرها ويشوقها أن يعيش الزوج وهو بها مشغول ، فكيف تكون الحال بعد أكل الثمرة الممنوعة حين يصبح جميع ما في الجنة حلالاً في حلال ؟

ونظرت فرأت أن الجدال حول الشجرة المحرمة ألانَ لسان آدم وعلّمه الحوار بأساليب لا تخلو من البراعة والظرف ، وقد تصل إلى السِّحر في بعض الأحيان ، فكيف المصير إذا تساوت قِيمُ الأشياء واستغنى آدم عن الجدال ؟

سيكون الصمت من نصيب آدم حين تنعدم أسباب الخلاف ،

فكيف تعيش حواء مع رجلٍ صَمُوت ؟ وهل قلّ صمت آدم برغم ذلك الخلاف ؟ لقد كانت له تأملات طويلة ينسى بها ما حواليه حتى لتحسب زوجته أنه لا يشعر بأن لها من الوجود أي نصيب ، فأي بلاء ينتظر حواء يوم تنقطع موجبات اللجاجة مع فارسها الجميل ؟

في تلك الحومة كادت حواء تنتقل من المعصية إلى الكفران ، والعياذ بالله ، فقد جاز لها أن تعترض على نظام الجنة ، وأن ترى أنه لا يخلو من اختلال . والثورة النفسية تحيل النعيم إلى جحيم ، وذلك ما وقعت فيه حواء

نظرت فرأت أن الجنة قليلة المحرمات ، فهي قليلة الطيبات ، وهل يستطيب الناس غير الممنوعات ؟

نظرتْ في هذا المعنى مليًّا ثم صرختْ :

أرى طِيبَ الحلال علىّ خُبثاً وطِيبَ العيش في خُبث الحرامِ

وهمّت باقتلاع شجرة التين لتحوّل الجنة إلى خراب ينباب ، فما كانت الجنة في نظرها غير تلك الشجرة الممنوعة ، وإذا اقتلعت تلك الشجرة فسوف يرى الله أن عنايته بخلق الجنة ذهبت أدراج الرياح !

ولكن شجرة التين التي لا يساوي حطبها درهمين أعجزت حواء فلم تستطع اقتلاعها برغم ما بذلت من الجهد « المحمود » فنكصت على عقبيها وقد نال منها الإعياء ما نال

وكان المفهوم أن تخجل من الهزيمة أمام شجرة التين ، وأن يزيد حقدها على الله ، ولكنها فرحت حين عرفت بالتجربة أن « شجرة الشرّ » قوية الجذور ، وأن الأمل في اقتلاعها ضعيف ، وتمنّت أن تصبح الجنة وفيها هذه الشجرة أمثال وأمثال

ذلك ما كان من أمر حواء ، فما أمرُ آدم وقد ذهب وحده لشهود حفلة الطيران ؟

رأى جميع المتفرجين يتحدث بعضهم مع بعض ، وهاله أن يرى الثعلب يناجي أتباعه بجذل وانشراح ، كأنه يدرك الدقائق من طيران أفراخ العندليب ، ورأى الأفعى تخاطب الأفعوان بعبارات فهِمَ منها أن حفر الجُحر في أصل الشجرة لا يقل خطراً عن بناء العش في أعالي الأغصان

أراد آدم أن يتكلم ، ولكن مع مَن ؟

لو كانت حواء حاضرة لحدثها عن ذكائه في استكشاف ما بين الخشب والماء ، فقد اهتدى إلى أن من يتخطى الخشبة لا تهوله أمواج الكوثر في كثير ولا قليل ، وهل يكون امتطاء الهواء أوثق من امتطاء الماء ؟ (١)

لو كانت حواء حاضرة لقال لها وقال ، ولكن أين حواء ؟

هنا أدرك آدم أن الحياة بلا رفيق لفظٌ بلا مدلول

ألم يكن يجرّد من نفسه شخصاً يحاوره حين يعتكف ؟

ألم تكن أشعاره تبدأ بعبارة « يا خليليّ » أو « يا صاحبيّ » كأنه يرى بضوء البصيرة أنه يحتاج إلى عدد من الأصحاب والخلان ؟

ألم يلاحظ أن الله حين اختصه بالنطق قد أوحى إليه أن حياته لن تكون بلا رفيق أو رفاق ؟ !

أين حواء ليبادلها الأحاديث ؟ وأين ماضيه في الطيران بأجواء الحقائق والأباطيل ؟

إلى حواء ، إلى حواء ، إلى حواء !!

فماذا يرى آدم ، وماذا يسمع ؟

يرى فتاةً خامدة بجوار شجرة التين ، ويسمع أنيناً يذيب لفائف القلوب

— حواء !

— . . .

— حواء !

— . . .

— حواء !

— آدم ؟

— نعم ، آدم ، ماذا بك يا حواء ؟

— لا شيء ، ولكن أين كنت ؟

— كنت أشهد حفلة الطيران

— ورأيت عدل الله ؟

— فيماذا ؟

— في تزويد الطير بنعمة لن نظفر بها أبداً ، فهو يطير عن هذه الجنة حين يشاء !

— وهل ملكت الثواء بالجنة يا حواء ؟

— أي جنة تريد ؟ أتريد هذا العيش الرتيب ، العيش الذي

(١) من هذا نعرف أن آدم سبق نوحاً إلى اختراع السفينة ، وإن لم يسبقه إلى ربطها بالسور والألواح

لا يحرَّم فيه غير طعامٍ واحد ؟ العيش المملول ، العيش الذى يقدَّم فيه التفاح بلا حساب ؟

— وما عيب هذا العيش يا حواء ؟

— عيبه أنه حلال فى حلال

— وماذا تريدين ؟

— أريد أن يكون لى جموح يُغضب الله

— وماذا تستفيدين من غضب الله ؟

— أريد أن أشغله بنفسى

— لك الويل ، يا شقية !

— لك أنت الويل ، يا بليد !

— حواء ، أنت حمقاء !

— الأحمق هو الذى يشهد حفلة الطيران ولا يستفيد

— وماذا يستفيد المرء من شهود حفلة الطيران ؟

— ألم تر مئات الأفراخ من الحمائم والبلابل والعنادل والصقور والعقبان وهى مجرَّحة بسبب العنف فى التمرين على الطيران

— نعم ، رأيت ، ثم رأيت !

— تقول إنك رأيت ، فهل فهمت أن تلك الجراح هى سرّ القدرة على التحليق ؟

— وإذن ؟

— وإذن نجرَّح مرة أو مرتين أو مرات ...

— لماذا ؟

— لنطير فى أجواء الرشد والنىّ والهدى والضلال

— إن كنت تريدين شجرة التين فلن أقرب شجرة التين

— حدثنى أحد الملائكة ...

— وتحدثك الملائكة يا حواء ؟

— وتحدثك أيضاً ولكنك لا تسمع !

— وماذا قالت الملائكة ؟

— قالت إن الله أخبرهم أنه سيجعل فى الأرض خليفة ، وأنهم كرهوا أن يجعل فى الأرض من يُفسد فيها ويسفك الدماء

— وماذا أجاب الله ؟

— قال : إنى أعلم مالا تعلمون

— ومعنى ذلك ؟

— معناه أننا سنصير إلى الأرض

— بعد هذا النعيم ؟

— وهل نحن فى نعيم ؟

— اتقى الله يا حواء

— اتق الله أنت

* * *

— الأرض ، الأرض ، الأرض !!!

— الأرض ، الأرض ، الأرض !!!

كذلك دار ذهن آدم وحواء بهذه الكلمات ، واشتهى آدم واشتهت حواء رؤية ذلك العالم المجهول

— إلى شجرة التين ، يا آدم

— إلى شجرة التين ، يا حواء

— ولكن احذر من أن تقول إنى أغريتك !

— لم يغرنى غير العينين النجلاوين ، والخدين الأسيلين ، والثغر المعطَّر بأنفاس الرحيق

— إعترف صراحة بأنى ما أغويتك ولا أضللتك ولا زينت لك العصيان

— أعترف بأن حواء لا تُسأل عما يجنى قدها الرشيق

— ولا خصرها الأهيف ؟

— ولا جيدها الأغيد !

— ولا ثغرها الرَّشوف ؟

— ولا طرفها الكحيل !

— ولا ثنيها وهى تتخطر فوق شط الكوثر ؟

— ولا سحر اللون الذى يتموج بساقيها حين تتمدد فوق الأعشاب !

— ولا يلؤمها حين تثور ؟

— ولا بكرهها حين تطيع !

— آدم ، آدم ، أنت مخلوقٌ نبيل

— معاذ الله أن أكون كذلك ، فما يوصف الرجل بالنبل إلا حين يملك ما يأتى وما يَدَع . وقد قلّت حيلتى فى رياضتك يا حواء ، فأنا بفضل هواك من المالكين

— لن تهلك وأنا معك

— ولن أهلك إلا لأنك معى ، فالرفيق الفاسد يجرّ صاحبه إلى الهلاك

— اللهُ قدَّر أن يكون مصيرنا إلى الأرض ، فما خوفك وتلك إرادته السامية ؟

— الجنة أسوار وحدود ، وأنا أخشى أن تكون الأرض بلا أسوار ولا حدود

— عند ذلك تستطيع أن تفر مني حين تشاء

— أنا في الجنة مقهور على محبتك بفضل الأسوار ، وسأكون في الأرض مقهوراً على محبتك بفضل الأهواء ، والفرق بين الحالتين بعيد

— لك أن تتحرر من هواي

— لو أصبحتِ تراباً يا شقية لكان من واجبي أن أستاف ذلك التراب

— تحبني يا آدم ؟

— أحب اللسان الذي يتلجلج بفم الحية الفضاض

— أنت وقح !

— الوقاحة لن تكون إلا من نصيب الجمال النشوان !

— النشوة العارمة لم تعرف إعياً غير إعيابك

— ولهذا أخضع للشهوة وأضيع

— إذن تأكل من شجرة التين

— وأستبيح المعصية في سبيل الجمال

— خذ هذه التينة يا آدم

— إيدني بنفسك

— هذه واحدة واثنية وثلاثة وأربعة وخامسة ، فهل وقع شيء ؟

— لم يقع شيء !

— وإذن يكون التين من تمر الجنة

عند ذلك مدّ آدم يده فتناول ثمرة التين وهو يرجو أن يكون مصيره مصير حواء ، ولكن جنة زُلزلت من جميع الجوانب فأدرك أن الله لا يقيم وزناً لغير هفوات الرجال .

« للحديث شجون وشجون »

زكي مبارك

كلمة التعليم الالزامي إلى البرلمان الجديد

التعليم الإلزامي في البرلمان

الجزء الأول من : تقويم التعليم الإلزامي

أوفى مرجع للمشتغلين بالتعليم الالزامي والشئون الاجتماعية

من فهرس المواد

رسالة التعليم الالزامي مستمدة من روح الدستور — التعليم الالزامي في مجلس النواب — الديموقراطية والتعليم الالزامي — التعليم الالزامي فكرة اجتماعية خطيرة — لا خطر في التعليم الالزامي على الحياة الاجتماعية — تنفيذ الالزام من أهم أسباب نشر المشروع — المشكلة الصحية للأطفال — سن التعليم الالزامي ومدته في مصر والممالك المتمدينة — حظ القرآن الكريم في مشروع التعليم الالزامي — عاصفة هوجاء يثيرها المرحوم محمود بك زكي — إحلال خريجي الأزهر محل المعلمين الحاليين — جعل الدراسة يوماً للبنين ويوماً للبنات — نتائج التعليم الالزامي تبعث على الاطمئنان — التعليم الالزامي في مجلس الشيوخ — تنسيق الصلة بين التعليم الالزامي والتعليم الابتدائي — المجانية وتعليم اللغة الأجنبية مشكلتان يحتمهما التعليم الالزامي — سر الحملة على هذا التعليم — تعليم الدين لغير المسلمين — التعليم الالزامي بين الداخلية والمعارف — التعليم الالزامي تحت قبة البرلمان — الاحصاء الأخير ...

لطائفة ممتازة من الشيوخ والنواب في جميع العهود البرلمانية

صدر هذا الجزء في ٩٦ صفحة ووزع على المشتركين ، ولدى المؤلف كمية محدودة للاشتراكات الجديدة

١٠ قروش اشتراك
لتقوم بأجزائه الثلاثة

محمد كامل حسنه

٣ شارع عبد المنعم
بعابدين . القاهرة